الخاتمة عند الممات بين الفوز والخسران

نظرة في المنجيات والمهلكات

❐ الشيخ يوسف موسى رضا(*)

المعيار في العمل هو في الخاتمة

الأعمال في ميزان الناس فوزاً وخسراناً هي ما يبدو فيها من حسن وقبح وخير وشرّ وصلاح وفساد، فتبعاً للوصف الذي يحمله صاحبه ظاهراً يحكمون عليه.

ولكن في ميزان الله: الأعمال في خواتيمها، فهناك حيث يودّع الإنسان الحياة يكون الفوز أو الخسران، والجنّة أو النار, فما قيمة من أفنى عمره في غرس بستانه بالأشجار والثمار والورود، حتى إذا آن الحصاد اقتدحت

(*) باحث إسلاميّ/لبنان.

شرارة في صيف لاهب فأشعلت البستان ناراً حتى صار رميماً كأن لم يغنَ بالأمس.

ورد في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال: سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: لا إله إلّا الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إنّ شجرنا في الجنّة لكثير، فقال: نعم، ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أنّ الله عزّوجلّ يقول:** ﴿ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ﴾[محمّد: 33]»[1].

والأخبار التي تحدّثت عن أنّ المعيار في الأعمال هي في خواتيمها كثيرة جدّاً في كتب الفريقين، نذكر بعضاً منها فيما يلي:

عن أمالي الصدوق: بإسناده عن داود بن سليمان، عن الرّضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: الدنيا كلّها جهل إلّا مواضع العلم، والعلم كلّه حجّة إلّا ما عمل به، والعمل كلّه رياء إلّا ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له**»[2].

وعن أمالي الصدوق أيضاً: عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أخذ بالأوّل والآخر**»[3].

أقول: المحسن فيما بقي هو التارك المنتهي عن مساوئ ما مضى، وهذه التوبة. قال تعالى: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﷺ﴾[الأنفال:38].

وعن أمالي الصدوق: عن الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير الأمور خيرها عاقبة**»[٤].

وروي عن سهل بن سعد الساعديّ أنّه قال: إنّ رجلاً من أعظم المسلمين غناءً عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبيّ صلى الله عليه وآله، فنظر النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: من أحبّ أن ينظر إلى الرجل من أهل النار فلينظر إلى هذا، فاتّبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدّ الناس على المشركين حتى جُرح، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله مسرعاً، فقال: أشهد أنّك رسول الله، فقال: وما ذاك؟ قال: قلتَ لفلان: من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين، فعرفت أنّه لا يموت على ذلك، فلمّا جُرح استعجل الموت، فقتل نفسه، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله عند ذلك: إنّ العبد ليعمل عمل أهل النار وإنّه من أهل الجنّة، ويعمل عمل أهل الجنّة وإنّه من أهل النار، وإنّما الأعمال بالخواتيم[٥].

وحدّث أحمد بن سهل الأزديّ العابد، قال: سمعت أبا فروة الأنصاريّ ـ وكان من السائحين ـ يقول: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريّين بحقٍّ أقول لكم: إنّ الناس يقولون: إنّ البناء بأساسه، وأنا لا أقول لكم كذلك, قالوا: فماذا تقول يا روح الله؟ قال: بحقٍّ أقول لكم: إنّ آخر حجر يضعه العامل هو الأساس. قال أبو فروة: إنّما أراد خاتمة الأمر[٦].

هواجس الخسران عند الخاتمة

قال تعالى: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ڤ ڤ ﴾[آل عمران: 102].

وبما أنّ المعيار في الأعمال هو في خواتيمها كما تقدّم في الأخبار

المذكورة آنفاً, فالهواجس من سوء العاقبة شديدة جدّاً لم يُستثنَ منها أحد، حتى الأنبياء بما فيهم نبيّنا الأعظم محمّدﷺ الذي أمنت هواجسه بعد الآية الكريمة: ﴿ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ﴾[التكوير:20].

هواجس الرسول الأكرم من سوء العاقبة

روي أنّهﷺ قال لجبرئيل لمّا نزل عليه بقوله تعالى: ﴿ک ک گ گ گ﴾[الأنبياء: 107]، هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى سوء العاقبة، فأمنت إن شاء الله بقوله تعالى: ﴿ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ﴾[التكوير:29- 21](٧).

وقال تعالى حكاية عن لسان نبيّ الله يوسف عليه السلام: ﴿ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خح خم سج سح سخ سم صح صم ضج ضح ضم طح طم ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﴾[يوسف:101].

هواجس المؤمنين من سوء العاقبة

وأمّا المؤمنون الذين جدّوا في هذا الدنيا بالأعمال الصالحات والأفعال الخيرات، يبقى يروادهم بالرغم من كلّ ذلك الخوف من سوء العاقبة حتى عند سكرات الموت، قال رسول اللهﷺ: لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة لا يتيقّن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزوع روحه وظهور ملك الموت له، وذلك أنّ ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدّة علّته، وعظيم ضيق صدره، لما يخلّفه من أمواله، ولما هو عليه من اضطراب أحواله في معامليه وعياله، وقد بقيت في نفسه حسراتها، فانقطع دون أمانيه فلم ينلها. فيقول له ملك الموت: مالك تجرع غصصك؟ فيقول: لاضطراب أحوالي واقتطاعك لي دون آمالي. فيقول له ملك

الموت: وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض ألف ألف ضعف الدنيا؟ فيقول: لا. فيقول ملك الموت: انظر فوقك. فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي تقصر دونها الأماني. فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك هنا وذرّيّتك صالحاً فهم هناك معك، أترضى بهم بدلاً عمّا هنالك؟ فيقول: بلى والله. ثمّ يقول: انظر، فينظر محمّداً وعليّاً والطيّبين من آلهما في أعلى علّيين. فيقول: أو تراهم هؤلاء ساداتك وأئمّتك هم هناك جلساؤك وأناسك أفما ترضى بهم بدلاً عما تفارق هاهنا؟ فيقول: بلى وربّي، فذلك ما قال الله تعالى: ﴿ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ﴾[فصّلت:30]، فأمّا ما أمامكم من الأهوال فقد كفيتموها، ﴿ڀ ٺ﴾ على ما تخلّفونه من الذراري والعيال، فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدلاً منه ﴿ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ﴾، هذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم وأناسكم وجلساؤكم[٨].

حسن العاقبة الأساس في الدعاء

وانطلاقاً من هذه الهواجس من سوء العاقبة تتركّز الأدعية بشكل أساسيّ على طلب التوفيق لحسن العاقبة آناء الليل وأطراف النهار وفي قنوات الصلوات وتعقيباتها.

نقل الشيخ محسن قراءتي قائلاً: كنت أدعو الله تعالى عند ضريح الإمام الرضا عليه السلام فورد على ذهني فكرة فقمت لتنفيذها حالاً، حيث وزّعت نظرة حولي فإذا ببعض الأفاضل في حال العبادة, فقمت إلى الأوّل وقلت له: إذا أخبرك أحد بأنّ الله يستجيب منك طلباً واحداً فماذا تطلب؟ قال العالم: أطلب حسن العاقبة, ثمّ قمت إلى عالم آخر وطرحت

عليه السؤال نفسه فأجابني نفس الجواب الذي قال به الأوّل، ثمّ قمت إلى عالم ثالث وطرحت عليه السؤال، فأجاب بما أجاب به الأوّلان من دون أن يعلم بما أجاب به صاحباه(٩).

وكان المرحوم الشيخ مهدي النراقي يتلو في سجود الركعة الأخيرة من صلاته: اللّهمّ اجعل عواقب أمورنا خيراً, فقيل له: إنّك في السبعين من عمرك وممّن تُعرف بالإيمان والتقوى, لست بحاجة إلى هذا الدعاء؛ لأنّ عاقبتك ستكون حسنة, فقال ﷺ: إنّني أخشى أن أكون ممّن نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً(١٠).

القرآن والدعوة إلى النظر في عاقبة الأمم السالفة

ولما تُمثّل خاتمة الإنسان في حياته من رسم للمصير الأبديّ للإنسان تبعاً لمكانه في العالم الآخر حيث الموازين والمحكمة الإلهيّة, نجد القرآن الكريم في كثير من آياته يحثّ على النظر في عاقبة الأمم السابقة والأقوام الخالية إمعاناً منه في الاتّعاظ من أحوالهم وما كانت عليه مصائرهم في التكذيب والإفساد والإجرام والظلم كي يقارب الناظر بعمله الحسن الذي عملوه ويجانب السوء الذي اقترفوه.

قال تعالى: ﴿گ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮬ ﮭ﴾[يوسف:109]. وقال تعالى: ﴿ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ﴾[الروم:9].

النظر إلى عاقبة المكذّبين

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المكذّبين، قال تعالى: ﴿ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ گ گں ں ڻ ڻ ڻ﴾[آل عمران:137]، وقال تعالى: ﴿ڃ ڃ چ چ ڃ ڃ چ چ چ چ چچ چ چ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڎڎ ژ ژ ڑ ک ک ک ک﴾[النحل:36]، وقال تعالى: ﴿ڃ ڃچ چ چ چ چ چ﴾[الزخرف:25].

النظر إلى عاقبة المجرمين:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المجرمين قال تعالى: ﴿ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ﴾[النمل:69]. وقال تعالى حكاية عن إهلاكه لقوم لوط: ﴿ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ﴾[الأعراف:84].

النظر إلى عاقبة المفسدين:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المفسدين، قال تعالى حكاية عن فساد فرعون: ﴿ۋ و و ۋ ۋ ې ې ې ې □ □□ □ □ □ □ □ □﴾[الأعراف:103]، وقال تعالى مخاطباً قوم شعيب للاعتبار من الأمم السالفة: ﴿گ گ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮬ ﮬ ﮭ ﮭ﴾[الأعراف:86]، وقال تعالى حكاية عن نكران آل فرعون الآيات التسع التي جاءهم بها نبيّ الله موسى: ﴿ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ﴾[النمل:14].

النظر إلى عاقبة الظالمين:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة الظالمين، قال تعالى: ﴿ې ې ې ې □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □□﴾[يونس:39]، وقال تعالى حكاية عن هلاك فرعون: ﴿ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ﴾[القصص:40].

المنجيات والمهلكات في الخاتمة عند الممات

لم يكتفِ الإسلام بالدعوة إلى النظر في عاقبة الأمم السابقة من أجل الاتّعاظ من مصائرهم بل بيّن على المستوى العمليّ ما ينفع في الخاتمة الحسنة عند الموت، وما يضرّ بها من الأعمال والأفعال, ونظراً لأهمّيّة التعرّف على ما يوجب الفوز أو الخسران في الخاتمة نعرض لكلٍّ منهما فيما يلي:

موجبات الخسران عند الخاتمة:

عندما نتأمّل في النصوص الدينيّة نجد الكثير من السلوكيّات والموبقات، ليس فقط أنّها تزيد بوزرها في ميزان الأعمال الثقال من السيّئات، بل بالإضافة إلى ذلك، تلقي بظلالها التبعة حتى على خاتمة فاعلها في الحياة؛ لما لها من دور كبير في إيجاب الخسران عند الخاتمة.

والذنوب بشكل عامّ توجب سوء الخاتمة؛ لما لها من أثر في قسوة القلب، كما في الخبر عن الكافي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عزّوجل: ﴿ڇڇ ڍڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ﴾[المطففين:14](١١).

ولكن هناك من الذنوب والآثام الخاصّة ما توجب سوء الخاتمة بشكل تتلاشى معها الآمال في النجاة.

وحتى لا يتوهّم القارىء الكريم نلفت النظر إلى أنّ مرادنا من إيجاب الخسران ليس الاصطلاح الفلسفيّ الذي يعني عدم تخلّف المعلول عن

العلّة، بل مرادنا من ذلك: أنّ الغالب في هذه الآفات السلوكيّة التي سوف نعرضها وغيرها تختم على صاحبها الخسران وتنزله العواقب السيّئة، خصوصاً إذا أهمل علاجها والعمل على إصلاحها. ونبيّن الأبرز من هذه الموجبات فيما يلي:

الموجب الأوّل: آفة الحسد:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: الحسد يأكل الحسنات ,كما تأكل النار الحطب[١٢].

والمراد من الحسد: تمنّي زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم ممّا له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه، ولكن تريد لنفسك مثلها، فهو غبطة[١٣].

وآفة الحسد من أشدّها فتكاً في دين الناس وإيمانهم، كما أنّها من أشدّها إيجاباً لسوء العاقبة والخسران عند الخاتمة، فكثير من الناس قضى عمره بالإيمان والتقى، حتى إذا ابتلي بالحسد أحرق كلّ حسناته، ورمى به إلى النيران، والشواهد على ذلك كثيرة ليس أوّلها مصير قابيل ابن نبيّ الله آدم، الذي في نهاية المطاف دفعه الحسد إلى أن يختم حياته بقتل أخيه هابيل، كما حكى ذلك الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم[١٤]، بل ختم الحسد بالخسران على حياة الكثيرين من البشر بعد قابيل وإلى يومنا هذا، ونظراً إلى البناء على الاختصار في هذه الصفحات، سوف أكتفي بشاهد واحد من وحي تاريخ الغيبة الصغرى في أواسط القرن الثالث الهجريّ، يعبرّ لنا كيف أنّ آفة الحسد لم ينجُ من جرّها إلى الوبال[١٥] حتى كبار القوم ومن هم في الأمّة من الأعلام.

عبرة في عاقبة الشلمغانيّ:

محمّد بن عليّ بن أبي عزاقر الشلمغاني المعروف، الذي كان من أعلام الشيعة وألف كتباً في التشيّع، ولكنّه لمنافسةٍ جرت بينه وبين الحسين بن روح النوبختي ـ النائب الثالث للإمام المهديّ ـ خرج عن طوره، وأخذ يدّعي دعاوى غير صحيحة، وحكم الإمام الحجّة في توقيع من توقيعاته المقدّسة بضلاله وانحرافه، وأعلن عن ذلك أيضاً سفيره الحسين بن روح النوبختيّ.

ويروي بعض العلماء رواية تقول: سأل رجل الحسين بن روح فقال له: ما تقول في كتب محمّد بن عليّ الشلمغاني؟ ومحمّد بن عليّ الشلمغاني لم يكن رجلاً من السوقة، أو رجلاً من العاديّين، إنّما كان عالماً من علماء الطائفة، كان وجهاً من وجوه المذهب، وكان قد صدرت عنه تصريحات ضالّة وانحرافات، فوقف منه الإمام ونوّابه موقفاً صارماً، وكان كثير التأليف، كانت كتبه تملأ المكتبات الإسلاميّة، فكانت مشكلة للشيعة في ذلك الزمن: رجل يملك قدسيّة كهذه، وعلماً كهذا، وفضيلة كهذه، ينحرف بهذا الشكل، يصعب على كثير من الأذهان أن تتقبّل هذه الفكرة، فلهذا طلبوا من الحسين بن روح النوبختي أن يسأل الإمام عن هذا الموضوع. فخرج التوقيع بتحريم قراءة كتبه، وأنّها كتب ضلال، حينئذ سألوه: ما نصنع وبيوتنا مليئة من كتبه؟ يعني ما من بيت إلّا وفيه كتاب من كتب ابن أبي عزاقر. قال: أقول لكم كما قال الإمام العسكريّ سلام الله عليه في بني فضّال ـ وبنو فضّال بيت من البيوت العلميّة الشيعيّة، ولكنّهم ابتلوا بأنّهم صاروا واقفيّة من الشيعة المنحرفين ـ: «**خذوا بما رووا وذروا ما رأوا**»[١٦].

الموجب الثاني: آفة الغرور:

قال تعالى: ﴿ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ﴾[لقمان:33]، عُرِّف الغرور بسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنّه على خير: إمّا في العاجل، أو في الآجل، عن شبهة فاسدة فهو مغرور(١٧).

والغرور بهذا المعنى يعتبر من الموجبات التي تصل بصاحبها إلى العواقب السيئة؛ لأنّه يعمي عن رؤية الحقّ، بتوهّم أنّه على حقّ، فيستمرّ بسلوكه المنحرف حتى يصير على طول الأيّام جزءاً من منظومته الفكريّة والعقديّة، وهذا أصعب ما يكون؛ لأنّه يبعّد فرص الهداية له. والأشخاص الذين حرفهم الغرور وختم على حياتهم بالخسران كثيرون جدّاً في التاريخ، نكتفي بعرض شاهد واحد من القرآن الكريم فيه العبرة والعظة.

عبرة في عاقبة طالوت:

طالوت من حيث النسب هو من سلالة النبيّين، فهو من أسباط بنيامين ابن نبيّ الله يعقوب، وتربّى في أسرة فقيرة، فقيل: كان دبّاغاً, وقيل: كان نجّاراً, وقيل: كان من رعاة الحمير. وكان عظيم الجسم، جميلاً، حسن المنظر، ومن الشجعان والأبطال. كان متبحّراً في بعض العلوم, حسن السياسة. وبهاتين الصفتين: البدنيّة والروحيّة، اصطفي طالوت ملكاً على بني إسرائيل عن طريق نبيّ الله شموائيل بن هلقانا، فهو لم يكن معروفا لدى بني إسرائيل، وإنّما التقى بالنبيّ شموائيل صدفة، وأقام عنده عدّة أيّام فاستحسن النبيّ أخلاقه وإيمانه فعيّنه ملكاً على بني إسرائيل بالرغم من اعتراضهم عليه.

قال الله تعالى حكاية عن هذا الاصطفاء: ﴿ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ
گگ گ ڳ ڳ ڳ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے
ۓۓ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ۇۇ ۆ ۆ ۈ﴾[البقرة:247]، وفعلاً أثبت طالوت قيادة ناجحة وشنّ حروباً عدّة على العمالقة في فلسطين، وانتصر فيها، خصوصاً في حربه مع جالوت التي هزم فيها شرّ هزيمة، بالرغم من قلّة العدد مع طالوت وكثرته مع جالوت، كما أنّ نبيّ الله داوود كان في عسكر طالوت، وهو الذي قتل جالوت. وقد حكى الله في كتابه عن هذه الحرب وانتصار طالوت على جالوت في قوله: ﴿ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ
ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ
چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ
ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ
ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ﴾ [البقرة:249-251].

والعبرة في المقام: أنّ طالوت بدأت حياته مشرقة وأعطاه الله من نعمه وحكمه على بني إسرائيل ملكاً حتى حكم قرابة الأربعين عاماً، ولكن في نهاية حياته استولى عليه الغرور والكبرياء فانحرف عن جادّة الحقّ حتى بلغ من انحرافه أنّه اخذ يقتل العباد والمؤمنين والكهنة، وانتهى به الانحراف بأن أعلن عداءه وخصومته لنبيّ الله داود عليه السلام فأخذ يحيك المؤمرات للقضاء عليه بمحاولة قتله ولكنّه لم يفلح. ولمّا فسد، غضب الله عليه، وعاقبه عن طريق هزيمته واندحار عساكره في حربه مع الفلسطينيّين، ممّا أدّى إلى مقتله ومقتل ثلاثة من أولاده. وقيل: هلك منتحراً، وبعد هلاكه انتقل الحكم والملك إلى نبيّ الله داود عليه السلام وحمل اليه إكليله وسواره(١٨).

الموجب الثالث: آفة الطمع بالملك والحكم

آفة الطمع بالملك مرض نفسيّ مزمن يبدأ في القلب نكتة سوداء، ولكن سرعان ما تتوسّع شيئاً فشيئاً حتى تقضي بسوادها على صفحة القلب ومعها يختفي كلّ ومضة نور فيه، وبالتالي: تتلاشى الآمال في عودة أسير الطمع بالملك إلى الحرّيّة المكلّلة بالهدى، وهذا ما سوف يوجب له الهلاك والخسران عند الممات، وهذا ما نطق به أحد العلماء بقوله:

لكنّ حبّ الملك داء مهلك وكم بهذا الداء قدما هلكوا[١٩]

وفي الأخبار، وُصِف حبّ الملك بأنّه عقيم؛ لأنّه يعقم صاحبه عن الهدى والرشاد، وبه مُنع أصحاب الحقّ من حقوقهم[٢٠]، كما به قتل الأخ أخاه[٢١]. وقلّ من الناس من وقع فيه وقام منه، وكُتُب التاريخ ـ بما فيه التاريخ الإسلاميّ، منذ الصدر الأوّل للإسلام وحتى عصرنا الحاضر ـ محشوّة بكمٍّ هائل من الذين سقطت عظمتهم ونزعت هيبتهم وباؤوا بالخسران والوبال لمّا جنحت نفوسهم إلى الملك وتطلّعت هممهم إلى الحكم.

ولا يتفاجأ القارىء الكريم أنّ تاريخنا الإسلاميّ حفظ لنا كيف أنّ حبّ الملك ختم على بعض من هم من كبار الصحابة بالعاقبة الوخيمة والخاتمة الأليمة، بما فيها من ميتة جاهلية بعد أن أنكروا إمام زمانهم، حتى انقلبوا عليه وجرّدوا سيوفهم لقتاله، وفيما يلي عبرة من الأوّلين ومن هم في عداد السابقين من المهاجرين.

عبرة في مصير طلحة والزبير:

طلحة والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين ومن المقاتلين الشجعان بين يدي رسول الله ﷺ في أكثر حروبه ومن الستّة الذين عيّنهم عمر بن الخطّاب في الشورى، ويدّعي العامّة أنّهما من العشرة المبشّرين بالجنّة. ولكن في لحظة من لحظات الشيطان، وفي زمن

إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وبعد أن بايعاه بالخلافة، استولى على قلبيهما حبّ الملك والطمع بالحكم، ولو في إمارة في العراق كالبصرة أو الكوفة، ثمّ استحكم هذا الحبّ للملك استحكاماً قادهما إلى الخروج على أمير المؤمنين، وتجييش الجيوش ضد خليفة المسلمين وإمام الزمان في البصرة ومعهما عائشة (أمّ المؤمنين).

وهناك اصطفّ الجيشان للحرب، والشيطان من ورائهما يوسوس لهما ليقعد بهما عن الصراط المستقيم، وهو يأتيهما من بين أيديهما ومن خلفهما وعن أيمانهما وعن شمائلهما، وفي المقابل: هما له منصتان ولوسواسه مذعنان. وفي غمرة هذا الإذعان حاول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أن يقطع وسواس الشيطان عنهما ويردّهما إلى رشدهما، ولو من باب الإبلاغ في الحجّة.

قال ابن قتيبة: فكلّم عليّ طلحة والزبير قبل القتال، فقال لهما: استحلفا عائشة بحقّ الله وبحقّ رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى منّي بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافة الناس أجمعين، وكفايتي رسول الله كفّار العرب بسيفي ورمحي، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أنّي لم أستكره أحداً على أني لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما. فأجابه طلحة جواباً غليظاً، ورقّ له الزبير.

ثمّ رجع عليّ إلى أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين، بمَ كلّمت الرجلين؟ فقال عليّ: إن شأنهما لمختلف، أمّا الزبير فقاده اللجاج، ولن يقاتلكم، وأمّا طلحة فسألته عن الحقّ فأجابني بالباطل، ولقيته باليقين، ولقيني بالشكّ، فوالله ما نفعه حقّي، ولا ضرّني باطله، وهو مقتول غداً في الرعيل الأوّل.

قال: ثمّ خرج عليّ على بغلة رسول الله ﷺ الشهباء بين الصفّين، وهو حاسر، فقال: أين الزبير؟ فخرج إليه، حتى إذا كانا بين الصفّين اعتنق كلّ واحد منهما صاحبه وبكيا، ثمّ قال عليّ: يا عبد الله ما جاء بك ها هنا؟

قال: جئت أطلب دم عثمان.

قال عليّ: تطلب دم عثمان، قتل الله من قتل عثمان، أنشدك الله يا زبير، هل تعلم أنّك مررت بي وأنت مع رسول الله ﷺ، وهو متكئ على يدك فسلّم عليّ رسول الله ﷺ، وضحك إلي ثمّ التفت إليك، فقال لك: يا زبير، إنّك تقاتل عليّاً وأنت له ظالم، قال: اللّهمّ نعم.

قال عليّ: فعلام تقاتلني؟ قال الزبير: نسيتها والله، ولو ذكرتها ما خرجت إليك، ولا قاتلتك فانصرف عليّ إلى أصحابه، فقالوا: يا أمير المؤمنين مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر، قال عليّ: أتدرون من الرجل؟ قالوا: لا. قال: ذلك الزبير ابن صفيّة عمّة رسول الله ﷺ. أما إنّه قد أعطى الله عهداً أنّه لا يقاتلكم، إنّي ذكرت له حديثاً قاله رسول الله ﷺ، فقال: لو ذكرته ما أتيتك. فقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، ما كنّا نخشى في هذا الحرب غيره. ولا نتّقي سواه، إنّه لفارس رسول الله ﷺ وحواريّه، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب، فإذا قد كفاناه الله فلا نعدّ من سواه إلّا صرعى حول الهودج[٢٢].

وقال ابن قتيبة: ذكروا أن عليّاً نادي طلحة بعد انصراف الزبير، فقال له: يا أبا محمّد ما جاء بك؟ قال: أطلب دم عثمان. قال عليّ: قتل الله من قتله.

قال طلحة: فخلّ بيننا وبين من قتل عثمان، أما تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّما يحلّ دم المؤمن في أربع خصال: زانٍ فيرجم، أو محارب لله، أو مرتدّ عن الإسلام، أو مؤمن يقتل مؤمناً عمداً. فهل تعلم أنّ عثمان أتى شيئاً من ذلك؟

فقال عليّ: لا.

قال طلحة: فأنت أمرت بقتله.

قال عليّ: اللّهمّ لا.

قال طلحة: فاعتزل هذا الأمر، ونجعله شورى بين المسلمين، فإنّ رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن رضوا غيرك كنت رجلاً من المسلمين.

قال عليّ: أو لم تبايعني يا أبا محمّد طائعاً غير مكره؟ فما كنت لأترك بيعتي.

قال طلحة: بايعتك والسيف على عنقي.

قال: ألم تعلم أنّي ما أكرهت أحداً على البيعة، ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمّد ابن مسلمة، أبوا البيعة، واعتزلوا، فتركتهم.

قال طلحة: كنّا في الشورى ستّة، فمات اثنان وقد كرهناك، ونحن ثلاثة.

قال عليّ: إنّما كان لكما ألّا ترضيا قبل الرضا وقبل البيعة. وأمّا الآن فليس لكما غير ما رضيتما به، إلّا أن تخرجا مما بويعت عليه بحدث، فإن كنت أحدثت حدثاً فسمّوه لي. وأخرجتم أمّكم عائشة، وتركتم نساءكم، فهذا

أعظم الحدث منكم، أرضاً هذا لرسول الله أن تهتكوا ستراً ضربه عليها وتخرجوها منه؟

فقال طلحة: إنّما جاءت للإصلاح.

قال عليّ: هي لعَمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج، أيّها الشيخ اقبل النصح وارضَ بالتوبة مع العار قبل أن يكون العار والنار[٢٣].

ولكن سرعان ما رجع الزبير عن رشده، خصوصاً بعد أن استفزّه ولده عبدالله بالجبن[٢٤]، وقاتل حتى قُتل. وبعد مقتله، نظر الإمام عليه السلام إلى رأسه وسيفه، فهزّ السيف وقال: سيف طالما قاتل بين يدي النبي صلى الله عليه وآله، ولكن الحين ومصارع السوء، ثمّ تفرّس في وجهه وقال عليه السلام: لقد كان لك بالنبيّ صلى الله عليه وآله صحبة، ومنه قرابة، ولكن دخل الشيطان منخرك، فأوردك هذا المورد.

وأمّا طلحة، فقل: أصابه مروان بن الحكم بسهمٍ في رجله أثناء المعركة، فهرب مجروحاً إلى البصرة ودمه ينزف، إلى أن هلك ودفن بها في قنطرة قرة[٢٥].

الموجب الرابع: ركوب الفتن في أيّام الفتن وأزمانها

بما أنّ الفتنة هي التي يعمى فيها وجه الحقّ من الباطل، فإنّ ركوبها يوقع صاحبها في المتاهات والضلالات والدخول فيها قد يكون سهلاً ولكنّ الخروج منها صعب، وغالباً ما تؤدّي الفتنة إلى الهلكة.

ورد عن النعمان بن بشير قال: صحبنا النبيّ صلى الله عليه وآله وسمعناه يقول: إنّ بين يدي الساعة فتناً كأنّها كقطع اللّيل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ثمّ يمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ثمّ يصبح كافراً، يبيع أقوام خلاقهم بعرض من الدنيا يسير، أو بعرض الدنيا[٢٦].

ولأجل النجاة من المصير إلى هذا الخسران حثّت النصوص الدينيّة على الابتعاد عن الفتن ما أمكن. فعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: لا تقتحموا ما استقبلتم من فور الفتنة، وأميطوا عن سننها، وخلّوا قصد السبيل لها[٢٧].

هناك نصوص تدعو الإنسان في زمن الفتن إلى أن يكون كولد الناقة الذكر الذي يستكمل السنة الثانية ويدخل في الثالثة لأنّ مثل هذا لا ضرع له كي يحلب كما لا يصلح ظهره للركوب لعدم نضجه, وهذا ما أشار اليه أمير المؤمنين في قوله عليه السلام في نهج البلاغة: «**كن في الفتنة كابن اللّبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب**»[٢٨].

وعن أيّام الفتن وأزمانها قال ابن أبي الحديد المعتزليّ:

أيّام الفتنة هي أيّام الخصومة والحرب بين رئيسين ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة، كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحّاك، وفتنة الحجّاج وابن الأشعث، ونحو ذلك، فأمّا إذا كان أحدهما صاحبّ حقّ فليست أيّام فتنة، كالجمل وصفّين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع صاحبّ الحقّ وسلّ السيف والنهى عن المنكر وبذل النفس في إعزاز الدين وإظهار الحقّ, قال عليه السلام: أخمل نفسك أيّام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس، لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك، ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء[٢٩].

الموجب الخامس: أن يكفر الإنسان بالنعم الإلهيّة التي أنعمها عليه:

قال تعالى: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ﴾[النحل:112]، هذا مثل لمن لم يشكر نعمة الله عليه ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ﴾، لا تضطرّ إلى هجرة إجباريّة، بل تعيش

في أمنٍ وأمان، ﴿ٹ﴾، ومضافاً إلى ذلك ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ﴾، ولكنّ حالها قد تبدّل في النهاية﴿ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ﴾. وإضافة لاستكمال نعم الله المادّيّة عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنويّة ما يستقرّ به حالهم في الدنيا، ويدام لهم ذلك في الآخرة، فبُعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء، وأُرسلت إليهم التعاليم السماويّة، ﴿ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ﴾[النحل:113]، فكانت النتيجة: ﴿ڄ ڄ ڃ ڃ﴾[٣٠].

وإنّما جاءت هذه النتيجة (الهلاك والخسران) تبعاً لكفران النعم الذي كان بمثابة المقدّمة.

عبرة في كفران النعم

ذكر المفسّرون في بيان أسباب نزول الآية المتقدّمة أعلاه أقوالاً عدّة, ووردت الأخبار بصيغ عدّة، نصّ بعضها على أنّ هذه الآية تحكي عن قصّة حدثت لجمع من بني إسرائيل في منطقة ما، وأنّهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله، فيما روت الأخبار الباقية الحادثة بصيغ أُخرى، من دون الإشارة إلى هوية المعنيِّين بالآية، وفيما يلي عرض لبعض هذه الأخبار بهدف العظة والعبرة:

الخبر الأوّل: روي في تفسير العيّاشي عن حفص بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ قوماً في بني إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدنٍ كانت في بلادهم يستنجون بها، فلم يزل الله بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلونها، وهو قول الله: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ﴾[النحل:112][٣١].

الخبر الثاني: القمّي في تفسيره قال: نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له الثلثان [الثرثار]، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، فكانوا يستنجون بالعجين، ويقولون هو ألين لنا، فكفروا بأنعم الله واستنجوا [واستخفّوا] بنعمة الله، فحبس الله عنهم الثلثان، فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى أكل ما كانوا يستنجون به، حتى كانوا يتقاسمون عليه[٣٢].

الخبر الثالث: عن زيد الشحّام عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له، إلّا أن يمصّها، أو يكون إلى جانبه صبيّ فيمصّها، قال: فإنّي أجد اليسير يقع من الخوان، فأتفقّده، فيضحك الخادم، ثمّ قال: إنّ أهل قريةٍ ممّن كان قبلكم كان الله قد وسّع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شيء من هذا النقي[٣٣] فجعلناه نستنجي به كان ألين علينا من الحجارة. قال عليه السلام: فلما فعلوا ذلك بعث الله على أرضهم دوابّ أصغر من الجراد، فلم تدع لهم شيئاً خلقه الله إلّا أكلته، من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا على الذي كانوا يستنجون به، فأكلوه، وهي القرية التي قال الله تعالى: ﴿ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ﴾ إلى قوله: ﴿ ڃ ڃ ڃ﴾[٣٤].

الموجب السادس: أن يحيف المرء بالوصيّة:

قال الراغب: الحيف: الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين[٣٥].

ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة سبعين سنة، فيحيف في وصيّته، فيختم له بعمل أهل النار، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة، فيعدل في وصيّته، فيختم له بعمل أهل الجنّة

(فيدخل الجنّة)، ثمّ قرأ: ﴿ڤ ڤ ڤڤ ڤ ڤ ڤ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ﴾[الطلاق:1][٣٦].

الموجب السابع: عقوق الوالدين:

العقوق ضد البرّ، والبرّ هو الإحسان، وبرّ الوالدين في القرآن الكريم غالباً ما يقرن بعبادة الله جلّ وعلا. قال تعالى: ﴿ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں﴾[النساء: 36].

والأخبار التي تتحدّث عن برّ الوالدين هي بالعشرات، وأشهر من نار على علم، وكذا الحديث عن عقوق الوالدين، وأنّه مانع من العاقبة الحسنة، وأنّ العاقّ في النار. ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الجنّة دار الأسخياء، والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنّة بخيل ولا عاقّ والديه ولا مانّ بما أعطاه**»[٣٧].

وعن أبي جعفر قال عليه السلام: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس، احذروا البغي**، إلى أن قال: **وإيّاكم والعقوق، فإنّ الجنّة يوجد ريحها من مسيرة مائة عام، وما يجدها عاقّ ولا قاطع رحم**»[٣٨].

عبرة في العاقّ لوالديه:

في المجالس، بإسناده عن سعيد بن يسار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حضر شابّاً عند وفاته، فقال له: قل لا إله إلّا الله، قال: فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أمّ؟ قالت: نعم، أنا أمّه، قال: أفساخطة أنتِ عليه؟ قالت: نعم ما كلّمته منذ ستّ حجج، قال لها: ارضي عنه! قالت: رضي الله عنه برضاك يا رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قل لا إله إلّا الله، قال: فقالها، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ما ترى؟ فقال: أرى رجلاً أسود قبيح المنظر وسخ الثياب منتن الريح، قد وليني

الساعة يأخذ بكظمي[٣٩]، فقال له النبيّ ﷺ: قل: يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل منّي اليسير واعفُ عنّي الكثير، إنّك أنت الغفور الرحيم، فقالها الشابّ، فقال له النبيّ ﷺ: انظر ما ترى؟ قال: أرى رجلاً أبيض اللّون حسن الوجه، طيّب الريح، حَسَن الثياب، قد وليني، وأرى الأسود قد تولّى عنّي، قال: أعِد، فأعاد، قال: ما ترى؟ قال: لستُ أرى الأسود، وأرى الأبيض قد وليني، ثمّ طفى على تلك الحال[٤٠].

موجبات الفوز عند الخاتمة

الموجب الأوّل: الالتصاق بالتقوى وملازمتها:

التقوى هي الاقتداء بالنبيّ ﷺ، والمتّقي من يجعل بينه وبين ما يخاف منه وقاية تقيه منه، ومنه: اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة، فأصل التقوى: الخوف من الله بملاحظة جلال الله وعظمته وقبح مخالفته وشدّة عقوبته[٤١].

ومن يحافظ على تقوائيّته لله فذلك من موجبات الاطمئنان لحسن الخاتمة، قال تعالى مخاطبا نبيّه محمّداً ﷺ: ﴿ ئے ے ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ﴾[طه:132]، وقال تعالى على لسان نبيّه موسى عليه السلام: ﴿ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ﴾[الأعراف: 128]، وقال تعالى: ﴿ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى﴾[القصص:83].

عبرة في الاعتقاد بأنّ العاقبة للمتّقين:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل رجل يكثر أن يقول: الحمد لله ربّ العالمين والعاقبة للمتّقين، فغاظ إبليس ذلك، فبعث إليه شيطاناً فقال: قل: العاقبة للأغنياء، فجاءه، فقال ذلك، فتحاكما إلى أوّل من يطلع عليهما على قطع يد الذي يحكم عليه، فلقيا شخصاً فأخبراه بحالهما، فقال: العاقبة للأغنياء، فقطع يده، فرجع وهو يحمد الله ويقول: العاقبة للمتّقين، فقال له: تعود أيضاً؟ فقال: نعم، على يدي الأُخرى، فخرجا، فطلع الآخر فحكم عليه أيضاً، فقطعت يده الآخرى، وعاد أيضاً يحمد الله ويقول: العاقبة للمتّقين، فقال له: تحاكمني على ضرب العنق؟ فقال: نعم، فخرجا فرأيا مثالاً، فوقفا عليه، فقال: إنّي كنت حاكمت هذا، وقصّا عليه قصّتهما. قال: فمسح يديه فعادتا، ثمّ ضرب عنق ذلك الخبيث، وقال: هكذا العاقبة للمتّقين[٤٢].

الموجب الثاني: الاعتقاد بأنّ الفوز توفيق من الله

هناك من الناس من يحمل في نفسه اعتقاداً باطلاً، وهو أنّ عملي بما هو يدخلني الجنّة، ولا علاقة لتوفيق الله بذلك, وهذا اعتقاد باطل لا يضمن الجنّة والفوز عند الخاتمة.

ورد عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بما يختم له، فإنّ العامل يعمل زماناً من عمره، أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنّة، ثمّ يتحوّل، فيعمل عملاً سيّئاً، وإنّ العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار، ثمّ يتحوّل، فيعمل عملا صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته، قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يوفّقه لعمل صالح ثمّ يقبضه عليه[٤٣].

ونظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى رجل أثر الخوف عليه، فقال: ما بالك؟ قال: إنّي أخاف الله، فقال: يا عبد الله خف ذنوبك، وخف عدل الله عليك في مظالم عباده، وأطعه فيما كلّفك، ولا تعصه فيما يصلحك، ثمّ لا تخف الله بعد ذلك، فإنّه لا يظلم أحداً، ولا يعذّبه فوق استحقاقه أبداً، إلّا أن تخاف سوء العاقبة بأن تغيّر أو تبدّل، فإن أردت أن يؤمنك الله سوء العاقبة، فاعلم أنّ ما تأتيه من خير فبفضل الله وتوفيقه، وما تأتيه من سوء فبإمهال الله وإنظاره إيّاك وحِلمه وعفوه عنك[٤٤].

الموجب الثالث: السعي في قضاء حوائج الإخوان:

عن عليّ ابن يقطين قال: استأذنت مولاي أبا إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام في خدمة القوم فيما لا يثلم ديني، فقال: لا, ولا نقطة قلم، إلّا باعزاز مؤمن، وفكّه من أسره, ثمّ قال عليه السلام: إنّ خواتيم أعمالكم قضاء حوائج إخوانكم، والإحسان إليهم ما قدرتم، وإلّا، لم يقبل منكم عمل، حنّوا على إخوانكم وارحموهم تلحقوا بنا[٤٥].

الموجب الرابع: التعظيم لحقّ الله:

ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام كتب إلى بعض الناس: إن أردتَ أن يُختم بخير عملك حتى تقبض وأنت في أعظم الأعمال فعظّم الله حقّه أن لا تبذل نعماءه في معاصيه، وأن تغترّ بحلمه عنك[٤٦].

الموجب الخامس: اتّباع الهدى:

قال تعالى في خطابه لبني آدم:

﴿ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ﴾[البقرة:38].

قال ابن عربي في تفسيره: والهدى هو الشرع، فمن تبعه أمن سوء العاقبة، فلم يخف ممّا يأتي من العقاب والفناء، وتسلّى عن الشهوات

واللذّات، فلم يحزن على ما فاته من حطام الدنيا ونعيمها؛ لاكتحال بصيرته بنور المتابعة، واهتدائه إلى ما لا يقاس بلذّات الدنيا من الأذواق الروحانيّة والفتوحات السرّيّة، والمشاهدات القلبيّة والعلوم العقليّة والمواجيد النفسيّة[٤٧].

المواظبة على قراءة الأذكار

ورد في المأثور جملة من الأدعية التي إن واظب العبد على قراءتها أمن سوء العاقبة عند الموت، وخصوصاً الأدعية التي تحفظ من العديلة. والمراد من العديلة: العدول إلى الباطل عن الحقّ، وهو بأن يحضر الشيطان عند المحتضر ويوسوس في صدره ويجعله يشكّ في دينه فيستلّ الإيمان من فؤاده[٤٨].

قال الصادق عليه السلام: ما من أحد يحضره الموت إلّا وكّل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتى يخرج نفسه، فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله حتى يموتوا[٤٩].

ومن الأدعية التي تُعين على الحفظ من العديلة:

قال في المستدرك ـ نقلاً عن أحد العلماء ـ: فإذا أراد الإنسان أن يَسلم من هذه العديلة فليستحضر أدلّة الإيمان والأصول الخمس بالأدلّة القطعيّة، ويصفي خاطره ويقول: اللّهمّ يا أرحم الراحمين، إنّي قد أودعتك يقيني هذا وثبات ديني، وأنت خير مستودع، وقد أمرتنا بحفظ الودائع، فردّه عليّ وقت حضور موتي، ثمّ يخزي الشيطان ويتعوّذ منه بالرحمن، ويُودِع ذلك الله تعالى، ويسأله أن يردّه عليه وقت حضور موته، وعند ذلك يَسلم من العديلة عند الموت قطعاً[٥٠].

وروى الشيخ الطوسي رحمه الله عن محمّد بن سليمان الديلميّ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، فقلت له: جعلت فداك أن شيعتك تقول إنّ الإيمان مستقرّ ومستودع، فعلّمني شيئاً إذا أنا قلته استكملتُ الإيمان, قال عليه السلام: قل في دبر كلّ صلاة فريضة: رضيت بالله ربّاً وبمحمّد صلى الله عليه وآله نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلة، وبعليٍّ وليّاً وإماماً، وبالحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وموسى بن جعفر وعليّ بن موسى ومحمّد بن عليّ وعليّ بن محمّد والحسن بن عليّ والحجّة بن الحسن صلوات الله عليهم أئمّة، اللّهمّ إنّي رضيتُ بهم أئمّة، فارضَني لهم، إنّك على كلّ شيء قدير(٥١).

المداومة على هذا الذكر الشريف:

﴿□ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □﴾[آل عمران:8] (٥٢).

المواظبة على تسبيح الزهراء بعد كلّ فريضة:

روى صالح بن عقبة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما عُبد الله بشيء أفضل من تسبيح الزهراء عليها السلام، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام. وكان يقول: تسبيح فاطمة عليها السلام في كلّ يوم دبر كلّ صلاة أحبّ إليّ من صلاة ألف ركعة(٥٣).

وروى محمّد بن عذافر قال: دخلت مع أبي على أبي عبد الله عليه السلام، فسأله عن تسبيح فاطمة عليها السلام فقال: الله أكبر، حتى عدّ أربعاً وثلاثين مرّة، ثمّ قال: الحمد لله، حتى بلغ سبعاً وستّين، ثمّ قال: سبحان الله، حتى بلغ مائة يحصيها مائة بيده جملة واحدة.

الموجب السادس: المواظبة على مواقيت الصلوات:

ورد عن الهيثم ابن واقد، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديثٍ: أنّ مَلَك الموت يتصفّح الناس في كلّ يوم خمس مرّات عند مواقيت الصلاة، فإن كان ممّن يواظب عليها عند مواقيتها لقنه شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحّى عنه ملك الموت إبليس[٥٤].

وفي نهاية المطاف، أقول:

قد حاولت في هذه العجالة قدر المستطاع الغوص في جواهر النصوص الدينيّة، متصيّداً منها كلّ ما له علاقة بارتباطه بالخاتمة عند الممات, ولا ندّعي في ذلك كمال الغرض, فما قدّمناه ما هو سوى استقراء ناقص.

كما نذكّر القارىء الكريم أنّ ما تقدّم من موجبات للفوز أو الخسران عند الخاتمة ليس هو علّة تامّة في ضمان حسن العاقبة، وإنّما هو من قبيل الداعي الذي يدعو إلى خاتمةٍ حسنة ومن شأنها أن تتخلّف بسوء اختيار الإنسان.

من هنا، لا يستغني الإنسان عن الدعاء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى في أن يجنّبه معاصيه ويقرّبه من مراضيه ما يحفظ به خاتمة حسنة في نيل الدرجات العلى والمكان الأسمى بمجاورة النبيّ صلى الله عليه وآله وآله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وخير الدعاء ما جاء في المأثور:

«يا من ختم النبوّة بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله اختم لي في يومي هذا بخير، وشهري بخير، وسنتي بخير، وعمري بخير»[٥٥].

«اللّهمّ مقلّب القلوب والأبصار، ثبّت قلبي على دينك ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب، وأجرني من

النار برحمتك، اللّهمّ امدد لي في عمري، وأوسع عليّ في رزقي، وانشر عليّ رحمتك، وإن كنتُ عندك في أمّ الكتاب شقيّاً فاجعلني سعيداً، فإنّك تمحو ما تشاء وتُثبت وعندك أمّ الكتاب»[٥٦].

وورد في رواية عليّ بن النعمان عنهم عليهم السلام:

«من قال هذا القول كان مع محمّدٍ وآل محمّد صلى الله عليه وآله، إذا قام من قبل أن يستفتح الصلاة: اللّهمّ إني أتوجّه إليك بمحمّد وآل محمّد وأقدّمهم بين يدي صلاتي، وأتقرّب بهم إليك، فاجعلني بهم وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقرَّبين، أنتَ مننت عليّ بمعرفتهم فاختم لي بطاعتهم ومعرفتهم وولايتهم، فإنّها السعادة، اختم لي بها، إنّك على كلّ شيء قدير»[٥٧].

* * *

الهوامش:

(1) الحرّ العامليّ، محمّد حسن، وسائل الشيعة 4: 1206، ط دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

(2) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار 67: 242، ط مؤسّسة الوفاء، بيروت.

(3) النمازي الشاهروديّ، الشيخ علي، مستدرك سفينة البحار 7: 295، ط مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

(4) ن. م.

(5) البخاريّ، صحيح البخاريّ 7: 212- 213، نشر دار الفكر للطباعة والنشر.

(6) الصدوق، معاني الأخبار: ص348، ط مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

(7) المدني الشيرازيّ، علي خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين عليه السلام 1: 459، ط مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

(8) الحلّيّ، حسن بن سليمان، المحتضر: ص52- 53.

(9) المهتدي البحرانيّ، عبدالعظيم، قصص وخواطر: ص525، ط دفتر نشر نويد اسلام، قم.

(10) ن.م. ص709.

(11) الكلينيّ، الكافي 2: 273، ط دار الكتاب الإسلاميّ، طهران.

(12) النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات 2: 5، ط النعمان، النجف الأشرف.

(13) ن.م. ص4.

(14) قال تعالى: ﴿ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئي ئي﴾[المائدة: 27-31].

(15) الوبال: سوء العاقبة، ومرعى وبيل: يتأذّى به بعد أكله. أبو حيّان الأندلسيّ، تفسير البحر المحيط 4: 5.

(16) فاضل المالكيّ، الغيبة الصغرى والسفراء الأربعة: ص46- 48، مركز الأبحاث العقائديّة، قم.

(17) النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات 2: 163.

(18) شبستري، عبدالحسين، أعلام القرآن: ص530-531، ط دفتر تبليغات، قم المقدّسة.

(19) الأصفهانيّ، محمّد حسين، الأنوار القدسيّة: ص78، ط مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم.

(20) أعني بذلك: أهل البيت فقد أقصوا عن حقوقهم في الخلافة من حقوقهم لآفة الشره بحبّ الملك، وقد اعترف خصومهم بذلك، يروى في خبر طويل: أنّ هارون الرشيد كان قد استقبل الإمام موسى بن جعفر الكاظم ببالغ الحفاوة والاحترام إلى درجة أنّه لمّا دخل استقبله على الباب، ولمّا جلس أجلسه مكانه ولما خرج شيّعه إلى أن غاب عنه، وكان ذلك في محضر ولده المأمون الذي لفت انتباهه هذا الصنيع من أبيه بالوقت الذي لم يره من قبل يصنع مثله مع أحد فسأله عن الشخص من هو؟ قال: هذا إمام الناس وحجّته على خلقه وخليفته على عباده، فقلت: يا أمير المؤمنين، أوليست هذه الصفات كلّها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر, وموسى بن جعفر إمام حقّ والله يا بنيّ أنّه لاحق بمقام رسول الله ﷺ منّى ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك فإنّ الملك عقيم. راجع: الشيخ الصدوق، عيون أخبار

الرضا عليه السلام 2: 85 - 86.

(21) كما قتل المأمون أخاه الأمين، وكلاهما من أولاد هارون الرشيد.

(22) الدينوريّ، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة 1: 67- 68، تحقيق الزيني، ط مؤسّسة الحلبيّ وشركاه.

(23) ن.م. 1: 70.

(24) كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى شبّ ابنه عبدالله، انظر: المعتزليّ، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة 2: 167، ط دار إحياء الكتب ـ عيسى الحلبي وشركاه.

(25) شبستري، عبدالحسين، أعلام القرآن: ص536.

(26) الإمام أحمد بن حنبل، مسنده 4: 272- 273، ط دار صادر، بيروت.

(27) النجفيّ، الشيخ هادي، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام 8: 294، ط دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

(28) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة 18: 82- 83.

(29) ن. م.

(30) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل 8: 345.

(31) الحويزيّ، عبدعلي بن جمعة، تفسير نور الثقلين 3: 92، ط مؤسّسة إسماعيليان، قم.

(32) القمّيّ، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمّيّ 1: 392، ط مؤسّسة دار الكتاب، قم المقدّسة.

(33) النقي، بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء: الخبز المعمول من الباب الدقيق، انظر: تفسير نور الثقلين 3: 92.

(34) الحويزيّ، نور الثقلين 3: 92.

(35) الراغب الأصفهانيّ، الحسين بن محمّد، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة (حيف): ص266، ط دار القلم، دمشق (الدار الشاميّة) ـ بيروت.

(36) الراوندي، قطب الدين، الدعوات: ص234- 235، ط مطبعة أمير، قم.

(37) البروجردي، السيّد حسين، جامع أحاديث الشيعة 13: 601.

(38) ن. م.: 16: 263.

(39) الحلق ومخرج النفَس.

(40) المجلسيّ، بحار الأنوار 78: 232- 233.

(41) المازندرانيّ، المولى محمّد صالح، شرح أصول الكافي 8: 236، ط إحياء التراث

العربيّ، بيروت.

(42) النمازيّ، مستدرك سفينة البحار 7: 296.

(43) الإمام أحمد بن حنبل، مسنده 3: 120.

(44) المجلسيّ، بحار الأنوار 76: 392.

(45) ن. م. 72: 379.

(46) البروجردي، جامع أحاديث الشيعة 13: 346.

(47) ابن عربي، تفسير ابن عربي 1: 49- 50، ط دار الكتب العلميّة، بيروت.

(48) القمّيّ، الشيخ عبّاس، مفاتيح الجنان: ص149، ط الدار الإسلاميّة، بيروت.

(49) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه 1: 133.

(50) النمازيّ، مستدرك سفينة البحار 7: 122.

(51) القمّيّ، الشيخ عبّاس، منازل الآخرة والمطالب الفاخرة: ص116، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

(52) ن. م. ص118.

(53) المحقق الحلّيّ، نجم الدين جعفر بن الحسن، المعتبر 2: 248- 249، ط مدرسة الإمام أمير المؤمنين، قم.

(54) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة 2: 455.

(55) الشيخ الطوسيّ، محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد: ص83، ط مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت.

(56) المصدر نفسه.

(57) النراقي، الشيخ مهدي، مستند الشيعة 5: 372، ط مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، قم.